رُنوكُ المماليك ورسومهم على عمارة طرابلس القديمة

أ. د. عمر عبد السلام تدمري(*)

حظيت آثار طرابلس وعمارتها القديمة في الآونة الأخيرة باهتمام الكثير من الباحثين والدارسين والآثاريّين والمهندسين، وصدر عنها دراسات أكاديمية عدّة، كان آخرها العمل الجماعي الذي قام به طلبة كلية الهندسة بالجامعة الأميركية في بيروت، ورفعوا فيه تصاميم ومسطّحات وخرائط لثمانية عشر مبنىً أثرياً، وصدر في كتاب من الحجم الكبير بعنوان «مدينة طرابلس القديمة».[1] وقد كان لي مشاركة فيه من خلال دراسة نوّهت فيها بإلماعةٍ خاطفة عن «الرنوك» المنقوشة على عمارة طرابلس، وضرورة لفت الأنظار إلى هذه الظاهرة الفنية - الحضارية التي اختصت بها العمارة المملوكية، خاصة وأن الدراسات التي وُضعت عن الرنوك حتى الآن كان معظمها عن رنوك القاهرة، والقليل منها عن دمشق. بينما لم تنل رنوك طرابلس ما تستحقه من العناية والاهتمام والدراسة، رغم الكمّ الموفور الذي يتوزع على عمارتها. وهي على وفرتها وتنوُّعها، تضيف - وبشكل مؤكّد - إلى الكمّ المعروف والمدروس من الرنوك مجموعةً جيدةً من النماذج ذات الخصائص المميزة، وتوضح آفاقاً جديدة لأشكال الرنوك المعروفة وأنواعها، بما يُثْري هذه الدراسة التي تُبرز جانباً مهماً من الفنون الإسلامية، لا يزال بحاجة إلى دراساتٍ وأبحاثٍ معمقة، من أساتذة الفنون، والمهندسين، والمؤرّخين على السواء.

ولما كان رئيس تحرير هذه المجلة الرائدة، والمهتمة بتاريخ أمتنا وحضارتها، الصديق الأستاذ فاروق البربير قد رغب إليّ في الإسهام بالعدد - الثاني - الخاص عن طرابلس المحروسة، فقد رأيت أن أسهم بهذه الدراسة الأولية عن رُنُوكها ورسومها. وإنني لَعَلَى يقينٍ بأنها ستجد اهتماماً تستحقه من الباحثين والآثاريين العرب والمستشرقين.

* * *

(*) ممثل لبنان في الهيئة العربية العليا لإعادة كتابة تاريخ الأمة في اتحاد المؤرّخين العرب
نائب رئيس جمعية المحافظة على آثار طرابلس ـ الجامعة اللبنانية ـ طرابلس

«الرنوك»: مُفردها «رَنْك»، وهي كلمة فارسية تتألف من: راء مفتوحة، ونون ساكنة، وكاف تُلفظ كالجيم المصرية. معناها: لون. وقد استعمل المماليك هذه الكلمة منذ القرن السادس الهجري (١٢م) - أي من قبل قيام دولتهم في مصر وبلاد الشام - للدلالة على الشارة،[٢] أو الشعار، أو الرمز، أو العلاقة التي يتخذها الشخص لنفسه وينفرد بها دون غيره، وذلك عند تأمير السلطان له.

وكان «الرنك» عبارة عن رسم لأشياء معينة، كالأدوات، مثل: السيف، أو الكأس، أو العصا، أو البُقْجة، أو الدّواة، أو العَلَم، أو حَدْوَة الفَرَس، وغيرها. والزهور، مثل زهرة اللوتس، أو النرجس، أو الوردة، أو الزنبق، وغيره. ولدينا الكثير منها على معالم طرابلس المملوكية.

أما فيما يخصّ السلطان، فيكون «الرنك» عبارةً عن كتابةٍ ذات عبارات محددة تكون بمثابة الشعار الخاص أو الختم السلطاني على الشيء الذي يملكه. ولدينا مثالٌ واحدٌ بطرابلس عن ذلك. أو يكون «رنك» السلطان رسماً لأحد الحيوانات المفترسة كالسبع، أو الفهد، أو النَّبِر، كرمزٍ للشجاعة والقوة، ولدينا مثال واحد بطرابلس أيضاً. أو يكون «الرنك» رسماً لطائر جارح كالنّسر.

و«الرنك» يرسم - في الغالب - ضمن إطار محدد، كدائرة، أو مربع، وغيره. وقلّ أن يأتي دون إطار. وبطرابلس يوجد النموذجان. وربما يتألف الإطار الدائري أو المربع أو غيره من منطقة واحدة، أو ينقسم إلى منطقتين، أو ثلاث مناطق أُفُقية، أكبرها عادةً المنطقة الوسطى، وهي تُسمى: شطا، أو شَطْف، أو شَطْب.[٣]

ويكون «الرنك» من لونٍ واحدٍ، أو أكثر من لون. وهو إما بسيط أو مركّب. فالبسيط هو عبارة عن رسم لشيء واحدٍ، مثل السيف، أو الكأس. أما المركّب فهو المتضمن لأكثر من رسم لشيء واحد، أو رسمين لشيئين مختلفين، أو عدة رسوم لأشياء متشابهة أو أشياء مختلفة. مثل رسم سيفين في إطار واحد، أو رسم سيف وحَدْوةٍ معاً، أو رسم كأسين، أو أربعة كؤوس في إطارٍ واحد. ويوجد النوعان بطرابلس.

أما الألوان، فلا نعرف منها بطرابلس سوى اللون الأحمر، كما في واجهة مسجد البرطاسي، وواجهة ضريح حمّام عزّالدين. أما بقية الرنوك فكلها بالأسود أو الرمادي بلون الحجارة الرخامية أو الرملية أو البحصاصية.

وتُرسم الرنوك على المباني، والمراكب الخشبية، والقماش، والأدوات المعدنية، والزجاجية، والنقود، والسيوف، والأقواس، وغيرها.[٤] أما رنوك طرابلس التي نعرفها فهي إما على النقود المصكوكة فيها، أو على المباني، وتتوزّع بين: القلعة، والبرج، والجامع، والمدرسة، والقصر، والخان، والحمّام، والقنطرة، وسبيل الماء.

وقد بلغ مجموع ما وصلنا من الرنوك المملوكية، على الآثار والتُحف الثابتة والمنقولة في مصر والشام حوالي (٥٠) رنكاً،[٥] ويدلّ معظمها على وظائف ومناصب أصحابها، ويمكن بالتالي تفسيرها. وفي المقابل فإنّ هناك مجموعةً من الرنوك لا تُفصح عن وظيفة أصحابها، ولا تزال حتى الآن يحيط بها الغموض رغم كثرة استخدامها في عصر المماليك، مثل رنك الزهرة أو الوردة أو اللوتس، وهي تنتشر بكثرة على عمارة طرابلس القديمة.

ومن أشهر الرنوك المعروفة:

«الدوادار» : الدواة، و«الطِّشْتُدار»: المَسْنِيَّة، و«السِّلَحْدار»: السيف، و«البُنْدُقْدار»: القوس، و«الأميراخُور»: حدوة الفَرَس، و«الجُمْدار»: البولو والكُرة، و«الجاشْنُكِير»: خَونْجَة، و«العَلَمْدار»: العَلَمان، و«الطَّبَلْدار»: الطبلة وزوج من العِصِيّ، و«البَشْمَقْدار»: الدّبوس، و«البَرِيديّ»: الدرع، و«الطَّبَرْدار»: الفأس.[٦] وغيره.



□ رنك السيف وحدوة الفرس داخل قلعة طرابلس.

وبالرغم من أن الرنوك كان لها دورٌ هامّ في عصر المماليك إلا أنها لم تحظ بعناية المؤرّخين العرب في العصر الوسيط، فهم لم يتعرّضوا للحديث عنها إلاّ في بعض الحالات القليلة في سياق كلامهم عن بعض الحوادث، أو تراجم بعض الأمراء.[٧] مما يدفع إلى الظنّ بأن الرنوك كانت أمراً مألوفاً في ذلك العصر، ولذا لم تستلفت النظر، شأنها شأن الأشياء الشائعة في عهدهم.

ونظراً لعدم توفر المصادر المدوّنة عن هذا الفن عند المؤرخين المسلمين، فإن البحث ينبغي أن يتوجه نحو الآثار القائمة، والتُحَف المنقولة، فهي الوحيدة التي تساعد في هذا المجال. ولا شكّ في أن التعرف على نوع الرنك يؤدي إلى التعرّف على وظيفة صاحبه، وبالتالي إلى صاحب الأثر وتاريخه، لأن الرنوك كانت في الغالب ذات صلةٍ وثيقة بالوظيفة التي يشغلها المملوك حين تأميره ومنحه الرنك. ومن ثم أصبح الرنك حقاً مشاعاً بين أمراء المماليك، فالوظيفة الواحدة يتعاقب عليها أميرٌ بعد أمير، وكلهم يتخذون الرنك أو الشعار نفسه، فالساقي مثلاً يتخذ شعار الكأس، وحتى يتميّز الساقي الجديد عن سلفه يُرسم الكأس مع بعض الفروقات البسيطة لتمييزه عن سابقه، ومن هنا نجد نماذج مختلفة عدة للرنك الواحد. ولدينا أمثلة عدة على ذلك في رنوك طرابلس كما سنرى.

وبعد هذه المداخلة التي لا بُدّ منها للتعرّف على موضوع الرنوك، نبدأ بالتعرّف على رنوك طرابلس المملوكية ورسومها.

رَنْك «الدوادار»

وشِعاره: الدواة = المحبرة. و«الدوادار» اصطلاح مركَّب من: الدواة، وهي عربية، ومن «دار» وهي فارسية من المصدر «داشتين» بمعنى: مُمْسِك، فيكون المعنى الكلّي: «مُمسِك الدواة» أو «حامل الدواة»، أو الموكَّل بإمساك الدواة للسلطان أو الأمير، وكانت هذه الوظيفة ممّن يشغلها العسكريون، ويجري اختيار الدوادار من بين الخاصكية، أي من مماليك السلطان. ثم أخذت رتبة الدوادار تزداد تدريجياً حتى صار من أمراء المئين، أي أميراً على مائة، ثم من أكابر أمراء المئين.(٨)

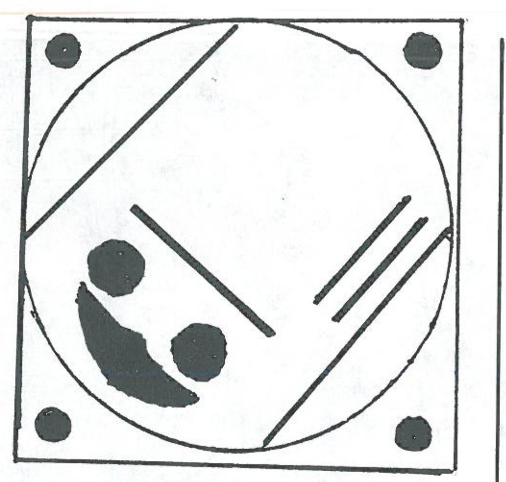
وكان للسلطان أكثر من دوادارٍ واحد، وربما بلغ عددهم العشرة من الأمراء والجُنْد.

ويوجد بطرابلس شعاران للدوادار:

الأول: للأمير «محمد بن مباركشاه العلائي»، نُقش سنة ٨١٦هـ (١٤١٣م) فوق سبيل الماء المعروف بسبيل التينة، الملاصق لحمّام إبراهيم باشا العظم(٩) المعروف الآن بحمّام الجديد، في محلّة بوابة الحدّادين. وقد رُسِم منه أربعة رنوك في الزوايا الأربع من اللوحة التاريخية التي تحتوي على أربعة أسطر، نصّها:

بسم الله الرحمن الرحيم
أنشا هذا السبيل الفقير إلى الله تعالى
محمد ابن المرحوم زين الدين مباركشاه
العلاي
في مستهل شوال سنة ست عشرة وثمنمية

ورُسم الشعار داخل دائرة، والدائرة داخل مربّع مُلامِسة لأضلاعه، وعند كل زاوية من المربع رُسمت دائرة صغيرة لوضع الحبر. أما الدائرة الرئيسية فقد قُسمت إلى ثلاثة أقسام، إثنان منها متساويان على طرفي الدائرة، أما القسم الأوسط فهو أكبر منها مساحة، ويحتوي



□ شكل (١)

على عدة عناصر هي: خطان متوازيان يوضحان موضع الأقلام البُوص = القصب التي كانت تُستعمل في الكتابة. وخطّ ثالث متعارض مع الخطين المتوازيين، يدل على صندوق صغير يمثل ساعة رملية. ودائرتان صغيرتان تمثلان موضعي الحِبْر والنشاء. وأخيراً فراغ على شكل نصف دائرة تُخَصَّص لقطعة القماش التي كانت تُستخدم غالباً في تنظيف الأقلام. (أنظر الشكل رقم ١)

وبالعودة إلى صاحب السبيل «محمد بن مباركشاه العلائي» فقد عرفنا من رنگه أنه كان دواداراً، ولم أجد له ترجمة، بل وجدت من اسمه «الأمير مبارك العلائي» وقد ذكره المؤرّخ «ابن تغري بردي»(١٠) وقال إنه كان نائباً للسلطان بغزة، ثم انتقل منها إلى طرابلس فتولى حجوبية الحُجاب بها في سنة ٧٧٨هـ (١٣٧٦م).

كما وجدت اسم «الأمير زين الدين مباركشاه» وكان نائباً على الإسكندرية في سنة ٧٩٨هـ (١٣٩٥م).(١١) ويُحتمل أن يكون صاحب السبيل بطرابلس ابناً لأحدهما.

الثاني: يوجد على لوحة حجرية مستطيلة يبلغ طولها متراً ونيفاً، بعرض نحو نصف متر، داكنة اللون، مثبتة في جدار أحد البيوت القديمة في زقاق صغير متفرّع من طريق الشهداء، الواقعة بين خان الخياطين وبركة الملاّحة. والمؤكّد أن هذه اللوحة كانت في مكانٍ آخر، ونقلت إلى موضعها الحالي في وقتٍ ما. وأرجّح أنها كانت في الأساس على واجهة أحد المعالم المعروفة كجامع أوخان أو سوق كبير، ليتسنى للناس قراءة نصّ المرسوم الذي كان منقوشاً عليها في سطرين، ثم صدر الأمر في وقت لاحق بإلغائه وإبطال مضمونه، فتمّ كشط النص ولم يبقَ منه سوى تاريخه في آخر السطر الثاني وهو: «**مستهّل سنة عشرين وثمانماية**»

وقد رُسم الشعار مرتين، على يمين اللوحة وعلى يسارها، وهو عبارة عن دائرة يقطعها خطّان أفقيان في الأعلى والأسفل. أما المنطقة الوسطى التي بين الخطين فهي أكبر مساحة، وتحتوي على خطين أفقين متوازيين يمتدان إلى نصف الدائرة، توضع فيهما الأقلام، ثم خطّ عمودي يعترضهما، يُستخدم ساعةً رملية. ووراء الخط دائرتان صغيرتان للحبر والنشاء، ثم فراغ على شكل نصف دائرة لقطعة القماش. (أنظر الشكل رقم ٢)

والمتأمّل لهذا الرنگ والرنگ السابق يلحظ بعض الفروقات البسيطة بينهما في الشكل، مما يؤكد أن صاحب شعار المرسوم هو غير صاحب شعار سبيل التينة، رغم أنه لا يفصل بينهما زمنياً سوى نيِّفٍ وثلاث سنوات فحسب.

وكان يتولى نيابة السلطنة بطرابلس عند مُستهل سنة ٨٢٠هـ (١٤١٦م) وهو تاريخ اللوحة، الأمير «يشبك اليوسفي». ويُحتمل أن نص المرسوم كان يتضمن إعفاء أهل طرابلس من بعض المكوس = الضرائب، فقام نائب السلطنة الذي بعده «الأمير سيف الدين بردبك



□ شكل (٢)

بن عبدالله الخليلي» بإزالة نصّ المرسوم وانتزاع اللوحة من مكانها، وأعاد المكوس على أهل المدينة. يؤيّد ذلك ما ذكره «المقريزي» وغيره(١٢) من أنه كان سيء السيرة في طرابلس، ووصل الأمر بأهلها إلى أنهم رجموه بالحجارة وأخرجوه من المدينة وأغلقوا أبوابها في وجهه، وأرسل حاجبها أميراً يحمل محضر كتاب أثبت فيه قضاة طرابلس على المذاهب الأربعة ما فعله بأهلها من الظلم، ورفعه إلى السلطان.

رنگ السّاقي = «الشَّرَابْدار»

وشِعاره: الكأس. ويُعتبر أكثر الرنوك انتشاراً على التُحف والآثار المملوكية. ومنه بطرابلس عدة نماذج نجدها في: أعلى مئذنة جامع الأمير طينال، وعلى الواجهة الغربية من المدرسة الخاتونية، وفي أعلى قنطرة زقاق القرطاوية، وداخل برج الأمير برسباي الناصري، المعروف ـ غلطاً ـ ببرج السباع، وداخل مدرسة الشيخ الهندي المعروفة بالمشهد، وفوق باب المدرسة الظاهرية، وفوق باب المدرسة الماردانية بالميناء.

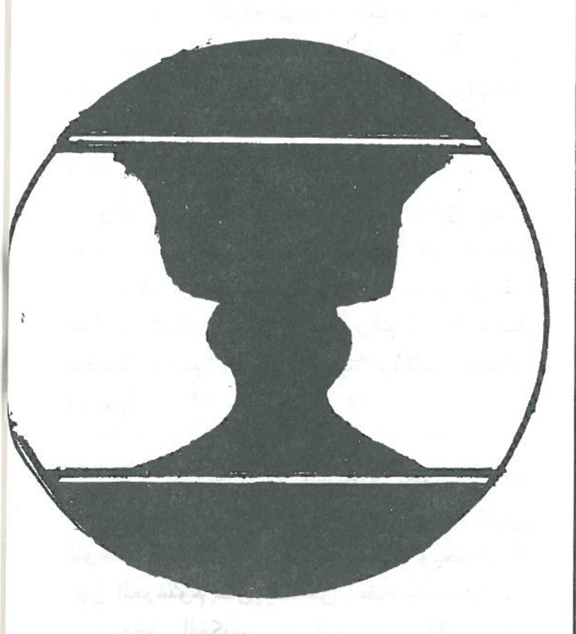
ويُعرف الساقي بـ «الشرابدار» وهو اصطلاح مركّب من مقطعين: شراب، وهو عربّي، لِما يُشرَب من ماء أو سوائل. و«دار»فارسي بمعنى مُمسك. فيكون هو ممسك أو حامل الشراب. وينبغي أن نعرف أن وظيفة الساقي لم تكن تقتصر على سقاية الشراب، بل كانت تشتمل أيضاً على مدّ السمّاط، وتقطيع اللحم. ورُبما سُمّي صاحب هذه الوظيفة بالساقي لأنه كان يختصّ في بداية الأمر بسقاية الشراب، ثم أضيف إليها بعد ذلك بعض المهام الأخرى كتقديم الطعام. ولعلّه سُمّي بالساقي لأن سقاية الشراب كانت تاتي في ختام المآدب والموائد. ولا يخفي ما لهذه الوظيفة من خطورة وأهمية، نظراً لأن الساقي كان بإمكانه دسّ السّمّ للسلطان في الشراب أو الطعام. ومن هنا كان يُحرَص على اختيار المخلص الأمين لهذه الوظيفة.

ورنوگ الساقي بطرابلس، منها ما هو بسيط، كرنگ مئذنة جامع طينال، وغيره. ومنها ما هو مركّب، كرنگ المدرسة الظاهرية الذي يضمّ كأسين، ورنگ برج برسباي الذي يضمّ أربعة كؤوس دفعة واحدة.

١ ـ في أعلى مئذنة جامع الأمير سيف الدين طينال،[١٣] وفي الجهة الشمالية من شرفتها، ثلاثة رنوگ، كلٌ منها يمثل دائرة بداخلها كأس، وليس في الدائرة أي خطوط = شطف، ويُعتبر هذا الرنگ من أبسط الرنوگ. (أنظر الشكل رقم ٣) وتاريخه من تاريخ بناء الجامع، وهو سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م وقد تفرّد «شمس الدين الشجاعي» بالقول إن الأمير «طينال» كان ساقياً في أول أمره.[١٤] ووجود رنگ الكأس على مئذنة جامعة يؤكّد هذه الحقيقة، مع أن جميع المؤرّخين الآخرين لم يذكروا هذه الوظيفة بين وظائفه. وهنا تأتي أهمية الرنوگ في كونها مصدراً وثائقياً صادقاً.

٢ ـ وعلى الواجهة الغربية للمدرسة الخاتونية[١٥] وفوق نوافذها المطلة على الطريق التي تُعرف بـ «صف البلاط» نُقش

□ شكل (٣)



□ شكل (٤)

(٨) ثمانية رنوگ، أزيل اثنان منها على مرورٍ الزمن، وبقي (٦) ستة رنوگ حتى الآن، كلّ منها يمثّل دائرة يقطعها خطان أفقيان من أعلى وأسفل، وهو ما يُسمى بالشطف أو الشطب، وبين الخطين مساحة أوسع رُسمت فيها الكأس. (أنظر الشكل رقم ٤) وتاريخ هذه الرنوگ من تاريخ بناء المدرسة وهو سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٣م. وصاحبها الأمير عزّالدين الأشرفي.

٣ ـ وفي أعلى قوس القنطرة لزقاق القرطاوية المطلة على سوق العطارين، يوجد رنگ الساقي وهو عبارة عن دائرة فيها خطان أفقيان من أعلى ومن أسفل، وبينهما منطقة أوسع في الوسط، رُسم فيها كأس وعاؤه أكثر اتساعاً من كأس المدرسة الحاتونية. (أنظر الشكل رقم ٥) وتاريخ هذا الرنگ من تايخ بناء مدرسة الأمير قَرَطاي التي سيأتي الحديث عنها بعد قليل، وذلك بين سنتي ٧١٦ ـ ٧٢٦هـ/١٣١٦ ـ ١٣٢٦م.

٤ ـ وعلى جدار الحجرة الغربية المُطلة على البحر في الطابق العلوي من بُرج الأمير برسباي الناصري في الميناء، كان يوجد رنگان رآهما الآثاري المستشرق «سوڤاجيه»، ووضع رسماً لهما،[١٦] وهما من النوع المركّب، إذ يحتوي الرنگ الواحد منهما على أربع كؤوس، منها كأسان صغيرتان في أعلى الدائرة وفي أسفلها، وكأسان كبيرتان متجاورتان في وسط الدائرة، يفصل بينهما وبين الكأسين الصغيرتين خطان أو شطفان أفقيان. وبين الكأسين الكبيرتين ما يشبه الدمعة. (أنظر الشكل رقم ٦)

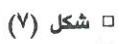
وإنّ وجود هذين الرنگين داخل البرج، بالإضافة إلى وجود المسجد الصغير ومحرابه في الطابق العُلوي يؤكّد أنّ البرج بناء إسلامي، ويُبْطِل كلّ المزاعم التي تدعي باطلاً أنه من بناء الصليبيين، وأنه بالتحديد من بناء «ريموند دي تولوز» لأنّ شعاره كان السبع، وسُميّ البرج ببرج «السباع» لذلك! وهذا لا

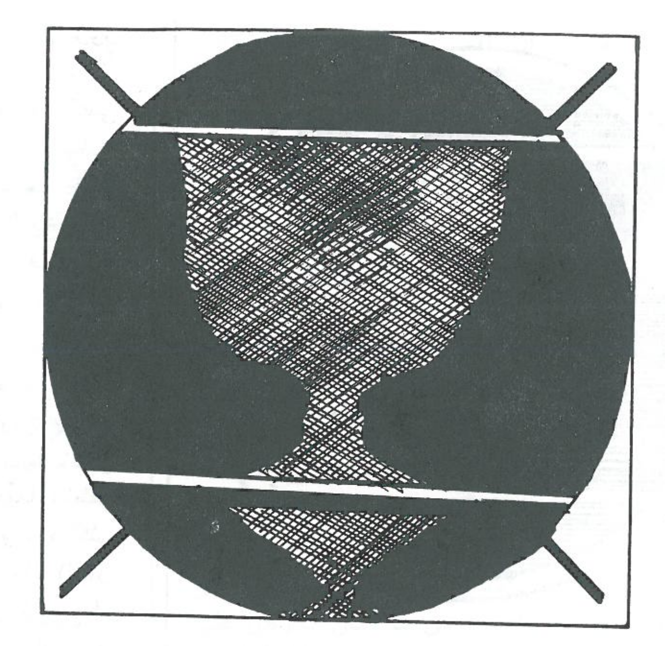


□ شكل (٥)



□ شكل (٦)





□ شكل (٧)

يعدو كونه تخريفاً، لأن «ريموند» مات قبل أن تسقط طرابلس بيد الصليبيين بعدة سنوات.(١٧) كما لم يثبت وجود سباع على باب البرج، وإنْ وُجدت فتكون مملوكية لأن بعض سلاطين المماليك اتخذ من السبع شعاراً له، ومنهم الظاهر بَيْبَرس البُنْدُقْداري (٦٥٨ - ٦٧٦هـ/١٢٦٠ - ١٢٧٧م)، والسلطان الملك الأشرف بَرْسَبَاي (٨٧٢ - ٩٠١هـ/١٤٦٧ - ١٤٩٥م)، ورُسم على أبنيتهما ونقودهما.

والصحيح أن باني البرج هو «الأمير سيف الدين بَرْسَباي بن عبدالله الناصري» المُتَوَفَّى سنة ٨٥١هـ/١٤٤٧م. وكان قد تولّى نيابة السلطنة بطرابلس مدة (٨) ثمان سنوات، بين (٨٤٣ - ٨٥١هـ/١٤٣٩ - ١٤٤٧م) وذكر المؤرّخ «ابن إياس» عند حديثه عن طرابلس ما نصّه: «**أنشا بها البرج الكبير**».(١٨) وورد اسم البرج «برج بارسباي» في دفتر مالية مدورة لسنة ٩٧٤هـ/١٥٦٦م وهو من محفوظات الأرشيف العثماني برئاسة الوزراء التركية باسطنبول. كما يرد اسمه كثيراً في سجلات المحكمة الشرعية بطرابلس: «برج بارسباه»، أو «برج برصباه»، أو «برج برسباي».(١٩) وإن للأمير «برسباي» عدة ترجمات في المصادر المملوكية، وجميعها لم تذكر أنه كان ساقياً،(٢٠) ولكن وجود رنگ الساقي على بُرجه يدلّ على أنه تولى هذه الوظيفة في إمريته، وبذلك أضيفت معلومة مهمة إلى ترجمته.

ويكون تاريخ الرنگ بين سنتي ٨٤٣ - ٨٥١هـ/١٤٣٩ - ١٤٤٧م.

٥ - وفي الزوايا الأربع للوحة التي تؤرخ لبناء المدرسة «الظاهرية» في الطريق المعروفة باسم «تحت السِّباط» توجد أربعة رنوگ مركبة أيضاً، وهي من الحجر الأسود، ويتألف كلّ رنگ من مربع فيه دائرة، ينطلق من محيطها أربعة خطوط مستقيمة، كل خط منها باتجاه زاوية من زوايا المربع. أما الدائرة نفسها فتنقسم إلى ثلاثة أقسام، قسم عُلْوِيّ ليس فيه أي رسم، وقسم سُفْلِيّ رُسم فيه كأس صغيرة، أما القِسم المتوسط فهو أكبر مساحة، رُسم فيه كأس كبيرة بين خطين = شطفين أفقيين. (أنظر الشكل رقم ٧).



□ شكل (٨)

والمدرسة «الظاهرية» هذه ليست من بناء السلطان الظاهر بيبرس كما يعتقد الكثيرون من أهل طرابلس، وهذا وهْمٌ وغلطٌ شائع، وممن وقع فيه المؤرخ الرحالة الشيخ عبد الغني النابلسي حيث ذكر في رحلته الكبرى إلى طرابلس ما نصّه: «... ومررنا في الطريق على مدرسة بناها بعض المتقدمين من الأمجاد، وقد دُفن فيها ولدان للملك الظاهر، أحدهما سلامش، والآخر سعيد، عليهما رحمة المُبدي المُعيد...».(٢١) وتابَعَه في وهمه هذا محقق الرحلة الأستاذ «عبد الحميد مراد».

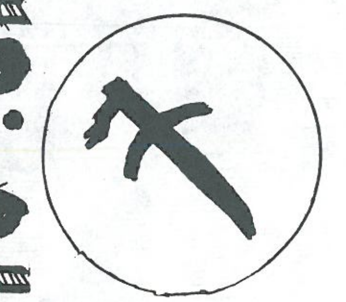
والصحيح أن بانيها هو الأمير «تَغْري برمْش الظاهري»(٢٢) في سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٧م والمدفون فيها هما ولداه: «قانتمر» و«تغري بردي»، وجاء ذلك في نصّ اللوحة التاريخية القائمة حتى الآن فوق باب المدرسة، وفيها نُقش ما نصّه:

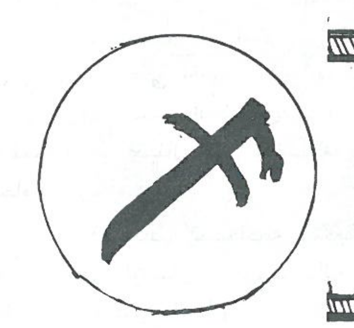
«... عمّر هذا المكان المبارك المقرّ السيفي تغري برمش الظاهري» أعزّ الله أنصاره، مسجداً لله تعالى، وتربة لدفن ولديه الأخوين الشقيقين السعيدين الشهيدين، سيّدي أمير قانتمر، وسيّدي أمير تغري بردي، الطفلين المنغصين على الدنيا... في ثالث شهر الله المحرّم سنة تسعٍ وتسعين وسبعماية. رحم الله من ترحّم عليهما».(٢٣)

والاسم الأصلي لتغري برمش هو: «حسين بن أحمد». وقد وضع له «ابن تغري بردي» ترجمة حافلة لكونه من مماليك أبيه، وذكر تقلّبه في الوظائف،(٢٤) ولكنه لم يذكر أنه كان ساقياً، فأفادنا الرنگ المرسوم على مدرسته أنه تولّى هذه الوظيفة.

٦ - وعلى الجدار الجنوبي (القِبلي) داخل مدرسة الشيخ الهندي(٢٥) التي تقع على يمين الباب الرئيسي للجامع المنصوري الكبير، يوجد شعاران صغيران للساقي، يفصل بينهما جامعة جصّية مستديرة ملأى بالزخارف الرائعة، قُطرها نحو نصف المتر، أما الرنگ الواحد منهما فلا يزيد قُطره على (١٠) سنتم. وهو رَنْگ بسيط يتألف من دائرة فيها كأس تُلامِسُ حافته وقاعدته محيط الدائرة من أعلى ومن أسفل. ويتميز الكأس

□ شكل (١٠)





هنا بطول قبضته عن الكؤوس الأخرى التي سبق ذِكرها. (أنظر الشكل رقم ٨).

وهذه المدرسة غير معروف من هو بانيها، ولا تاريخ بنائها، وهي على الأرجح من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي.

٧ ـ وفي الزاويتين العُلْويّتين، على اليمين واليسار من اللوحة الرخامية البيضاء لمدرسة الأمير «أَيدغُمُشْ الماردانِي» بسوق الميناء، رُسم رنكان في دائرتين صغيرتين، يتوسّط كلاً منهما كاس، هو أشبه برنك مئذنة جامع طَيْنال، وتاريخهما من تاريخ بناء المدرسة حسب نصّ اللوحة التي توجد فوق بابها، وهو سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م.

ومن المؤسف أنّ هذه المدرسة ظلّت مجهولة إلى الآن، فلم يكتب عنها أحد ممّن صنّف في تواريخ طرابلس وآثارها، ولم تعلم بها مديريّة الآثار، فلم تضعها في لائحة آثار طرابلس أو الميناء مع أنها من أقدم المدارس المملوكية، كما هو واضح من تاريخها. وكنت أول من كتب عنها ونبّه إليها[٢٦].

رَنْك «السّلحدار»

وشِعاره: السيف. و«السّلحدار» مصطَلَح مركّب من كلمة «السلاح» وهي عربية، و«دار» وهي فارسية. بمعنى: مُمسِك، فيكون الإجمالي: مُمسِك السلاح، أو حامل السلاح، ويُعبَّر عنه بالسيف، وهو يتّخذ أشكالاً مختلفة على التُحف والآثار[٢٧].

وقد وجدتُ بطرابلس من رنك السّلحدار أو السّيفي أربعة نماذج، ثلاثة منها بسيطة، والرابع مركّب.

فالبسيطة هي:

١ ـ رنك الأمير «أَلْطُنْطاش»، وقد رُسم مرتين على جانبي اللوحة الكتابية التي تعلو باب قصره بالقرب من بركة الملاّحة. والرنك عبارة عن دائرة، في وسطها سيف، نصْلُه طويل مستقيم، له عارضة مقوّسة (وقاء)، وتتدلّى من قبضته ذؤآبتان. وأخذ السيف وضعاً مائلاً إلى اليمين في الدائرة اليمنى، ومائلاً إلى اليسار في الدائرة اليُسرى.

ومن حُسْن الحظ أن هذا الرنك لا يزال موجوداً مع الكتابة التي تسجّل اسم صاحبه، وهي من ثلاثة أسطر:

«ادخلوها بسلام آمنين»

مما عُمل برسم الأمير سيف الدين الطنطاش السيفي

أنشا الفقير محمد بن عبد الحميد

وقد كُتبت الكلمتان الواقعتان في آخر السطرين: الثاني والثالث بشكل عموديّ من أسفل إلى أعلى. (أنظر الشكل رقم ١٠).

وهذه اللوحة تقوم فوق باب يُفْضي إلى قاعة، قيل لي إنها كانت تحتوي على ضريح أزيل حول منتصف هذا القرن، وتحوّلت القاعة الآن إلى مستودع. ويُفترض أن هذه القاعة، من ملحقات قصر الأمير المذكور، ويدلّ على القصر باب آخر يبعد عن الأول نحو عشر خطوات، تعلوه عتبة رخامية، تملأ الزخارفُ الوجهين الظاهرين منها، ويبرز من وسط العتبة كتلة طنفة على شكل نصف كرة ناتئة مفرّغة بشكلٍ هندسيّ بديع.

وتحت عِقد هذا الباب توجد زخرفتان منقوشتان فوق باب قديم مسدودٍ الآن بالحجارة، وهما فوق بعضهما. العُلْيا تمثّل رنك أو رسم الزهرة، وهي من خمسة أوراق نافرة، وفي وسطها زرّ نافر. والزخرفة السُفْلى تمثّل مربّعاً، في داخله تربيعة متعارضة الأضلاع، على شكل دولاب الهواء الذي يلعب به الأطفال. وهي زخرفة شائعة بكثرة في العمارة الإسلامية، وفي التزيينات الخشبية، نجد مثيلاً لها في أعلى الشُرفة لمئذنة جامع الأمير «أرغون شاه»[٢٨]، وهي من الحجر البحصاصيّ الأبيض. وعلى الباب الخشبي للقاعة العُلوية من دار قاضي طرابلس الشافعي «شمس الدين الإسكندري» فوق مدرسته المعروفة بالشمسية[٢٩]. (أنظر الشكل رقم ١١).

وبعد.. من هو الأمير سيف الدين أَلْطُنْطاش السيفي؟

لقد بحثت في عشرات المصادر المخطوطة والمطبوعة التي تُعنى بتاريخ المماليك وتراجم رجالات عصرهم، ولم أهتدِ إلى ترجمته. غير أنني وقفت على اسم بستانٍ قديم بطرابلس كان يُعرف ببستان أَلْطُنطاش، إذ وردَ ذِكره في وقفية الأمير طَيْنال التي نُقشت فوق عتبة باب جامعه، وجاء فيها ما يلي:

«.. ووقف عليه لمصالحه المعيّنة في كتاب وقْفه جميع البستان المعروف بالحموي بظاهر طرابلس، وجميع الحانوتين الملاصقتين لبابه، وجميع البستان المعروف قديماً بالطنطاش بسقي طرابلس[٣٠]».

ومن المعروف أن جامع طَيْنال تمّ بناؤه سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م. وبما أنّ ذِكر بستان ألْطنطاش ورد في وقفيّته، وكونه كان يُعرف بهذا الإسم «قديماً»، فهذا يعني أنّ صاحبه كان بطرابلس قبل بناء الجامع بمدّة طويلة، وأرجّح أنه كان بها منذ تحريرها من الصليبيّين (٦٨٨هـ/١٢٨٩م). أو بعد ذلك بقليل.

كما يدلّ لقبُهُ المنقوش مع رنگه، على أنه كان أميراً كبيراً، والأمير الكبير هو مقدَّم ألف فارس. وكان بطرابلس على عصر المماليك ثلاثة أمراء كبار، كلٌّ منهم مقدَّم ألف، غير نائب السلطنة بها، فهو أيضاً من مقدّمي الألوف، ويُعرف بملك الأمراء[٣١].

أما اسم «أَلْطُنْطاش» فهو تركيّ مركّب من: «أَلْطُن» ـ بهمزة قطع ولام ساكنة ثقيلة، وطاء مهملة مضمومة، ونون ـ ومعناها: الذَهَب. و«طاش»: معناها: حجر، فيكون اسمه بالعربية: حجر الذهب، أو الحجر الذهبي.

وأفادنا النص المنقوش أيضاً عن اسم «محمد بن عبد الحميد» كواحدٍ من المهندسين أو معلّمي البناء الذين سجّلوا أسماءهم على بعض الصروح العمرانية في طرابلس على عصر المماليك.

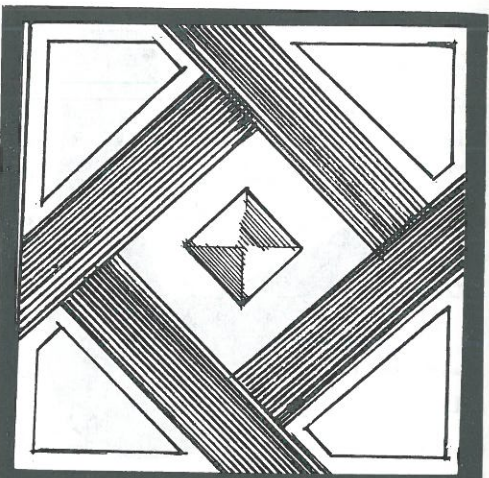
٢ ـ رنگ الأمير آق طرق الحاجب، وقد نُقش منه اثنان على واجهة مدرسته المعروفة بالسقرقية[٣٢]. وهو عبارة عن دائرة كبيرة ضمن مربّع، يقطعها في الوسط خطّ (شطف = شطب) عريض، أُفُقي، ورُسم سيف قصير النصْل بوضع مائل في وسط الدائرة، بحيث بدا القوس = الوقاء، وقبضة السيف ولها ذؤآبتان، فوق الخط. وبدا نصْلُ السيف أسفل الخط. ورُسم السيفان في الرنگين بوضعين متعاكسين، الأول يميل نحو اليمين، والثاني يميل نحو اليسار. (أنظر الشكل رقم ١٢).

وصاحب هذا الرنگ هو الأمير سيف الدين أَقْطرق الحاجب، واقف المدرسة المعروفة اختصاراً للَقَبه واسمه «بالسّقرقية»، وتاريخه من تاريخ الوقفية سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م. وهو من حُجّاب طرابلس الكبار وأمراء السيوف.

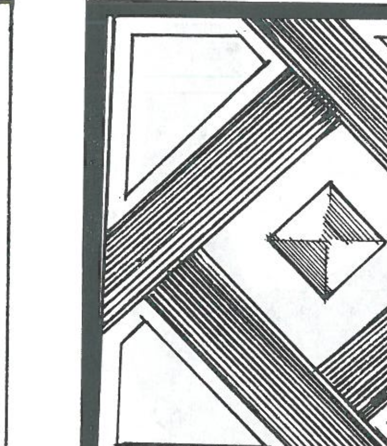
و«أَقْطُرق» اسم تركي مركّب من «آق» معناها: أبيض. و«طرق» معناها: الطريق. فيكون الإجمالي: الطريق الأبيض. ولعلّه: «طَرَق» وهو المُشْط بالتركية.

٣ ـ رنگ «البُرْطاسي». وهو منقوش على كتلة حجرية صَلْدة، ضخمة، يبلغ طولها نحو المتر وربع المتر، وسماكتها نحو نصف المتر، وصفحتها نحو نصف المتر أيضاً، عُثر عليها مؤخّراً داخل إحدى الحجرات التابعة لمدرسة أو مسجد البُرطاسي القائم على ضفة النهر في محلّة جسر السُّوَيقة العتيق.

والمرجَّح أنّ هذا الحجر كان مثبّتاً في أحد العماير المملوكية الضخام القريبة من المسجد، إذ يحتاج إلى أربعة رجال ـ على الأقّل ـ لتحريكه من مكانه، ولذا أميل إلى القول بأنه كان قديماً فوق باب «البيمارستان» الذي كان يواجه المسجد، ولا يفصل بينهما سوى عرض الطريق. والمعروف أن البيمارستان أزيل حول سنة ١٩٦٠ تنفيذاً لمشروع تقويم مجرى نهر أبي علي بعد فيضانه المشهور أواخر سنة ١٩٥٥.



□ شكل (١١)



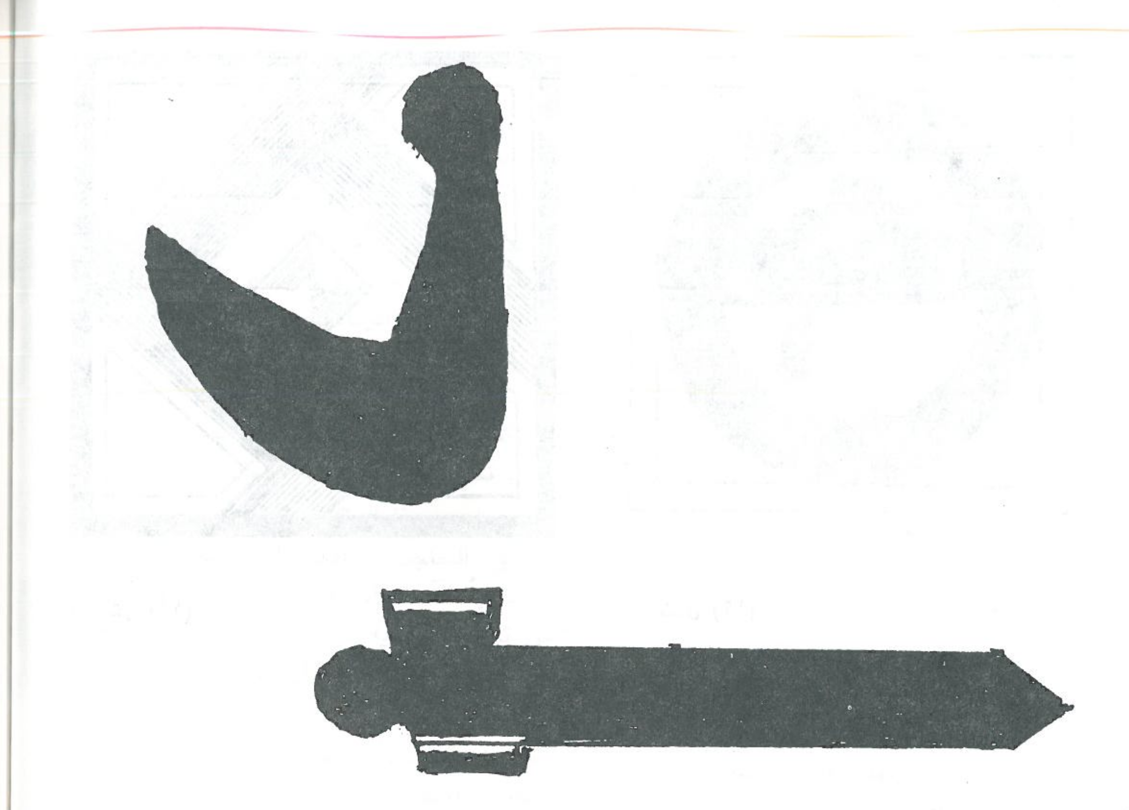
□ شكل (١٢)





□ شكل (١٣)

ويوضع الحجر الآن في باحة مسجد البرطاسي قرب حوض الوضوء، ولذا سمّيته «رنگ البرطاسي» مجازاً. وهو يتضمَّن على صفحته تربيعة هندسية بخطوط متناسقة متساوية الأبعاد تشكّل زخرفة إسلامية بديعة، وعلى جانبي التربيعة رُسم رنگا السيفي، يتألّف كلٌّ منهما من دائرة كبيرة، يقطعها في ثلث مساحتها الأسفل خطّ = شطف عريض، باتجاهٍ أفقيّ مستقيم، ورُسم داخل مساحة الثلثين العليا سيف متوسّط الطول، في آخر نصله عارضة مقوّسة = وقاء، ثم القبضة ذات الذؤآبتين. (أنظر الشكل رقم ١٣) وليس على الحجر كتابة، ولهذا لا يُعرف من هو صاحب هذا الرنگ.



□ شكل (١٤)

٤ ـ أمّا الرنك السيفي الرابع، فهو مركّب يجمع بين السيف وحدوة الفَرَس. وهو منقوش على حجر بحصاصيّ ضخم يبلغ طوله نحو المتر، وعرضه نحو نصف المتر ونيّف، ويوجد في الجهة الجنوبية داخل قلعة طرابلس. وهذا الرنك لم يقف عليه الدكتور «حسّان سركيس» أثناء تنقيباته الأثرية في القلعة[٣٣]. وهو من الرنوك القليلة التي وصلتْنا دون أن يكون لها إطار يحصرها، سواء كان مربّعاً، أو دائرة، أو غيره. والسيف هنا يختلف عن السيوف السابقة، فهو مستقيم عريض النصْل ينتهي بمثلّثٍ حادّ، وله وقاء غير مقوّس، بل هو حادّ الزوايا، وقبضتُه تبدو كأكرة الباب من غير ذؤآبة. (أنظر الشكل رقم ١٤) وفوق السيف لجهة اليسار رُسم شكل حدوة الفَرَس.

رنك «الأمير أخور»

شِعاره: حَدْوة الفَرَس، وقد رُسم فوق السيف على حجرٍ داخل القلعة كما تقدّم. وهذا الرنك المركّب من السيف والحدوة غير معروف صاحبه، ولكنه موجود بالقرب من الإصطبل الكبير في الجهة الشرقية من القلعة، وهو المعروف بـ «الأخور»، ممّا يدلّ على أن صاحبه كان أمير أخور كبير مقدّم ألف. ولعلّه هو صاحب «برج الأخور» أحد أبراج القلعة الذي ورد ذكره في وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس[٣٤]، ووجود الرنك يدلّ على موضع البرج..

و«الأمير أخور» مصطلح مركّب من مقطعين: «أمير» عربي، و«أخور» فارسيّ، معناه: العَلَف. فيكون المعنى الإجمالي: «أمير العَلَف»، وبما أنّ العَلَف مرتبط بالدّواب، فقد أُطلق الإسم على القائم على أمر الدّوابّ من الخيل والبِغال والإبِل وغيرها في الإصطبلات السلطانية في دولة خوارزمشاه، والسلاجقة، والمماليك[٣٥]. ويتّضح من التركيب اللغوي لاسم هذه الوظيفة أنه انتقل إلى الأيوبيّين عن طريق الأتابكة والسلاجقة، ومنهم ـ أي من الأيوبيّين ـ إلى دولة المماليك، حيث جاء ترتيبها بين الوظائف في المرتبة السادسة بين الوظائف العسكرية الكبرى بقصر السلطان المملوكي، وصارت تُسند عادةً إلى أمير مائة أو مقدّم ألف[٣٦]. ويُطلق المؤرّخ «أبو الفداء» على هذا الشعار اسم «رنگ النعل»[٣٧]، ويقصد به «الحدوة» لأنها خاصّة بالدّوابّ.

رنگ «الجوكَنْدار»

شِعاره: عصاتان وكُرَتان. و«الجوكَنْدار» أصله: «الجوگان دار»، وهو مصطلح فارسيّ مركّب من: «جوگان» بمعنى العصا المنحنية أو المِحْجَن الذي تُضرب به الكرة، أو عصا البولو ويُعبَّر عنها بالصولجان. و«دار»: بمعنى مُمسِك. فيكون المعنى الكلّي: «مُمسِك الجوگان»[٣٨]. وكان يُطلق اسم «الجوكندار» على موظف مهمّته حمل الجوگان للسلطان أثناء خروجه للعب الكرة والصوالجة والبولو في عصر المماليك. وليس من شكٍ في أن هذه الوظيفة عُرفت قبل عصر المماليك أيضاً[٣٩]، ولكنّها كانت من الألعاب المفضّلة عند المماليك عموماً، ونالت اهتماماً وإعجاباً كبيرين لدى السلاطين والأمراء في ذلك العصر، وهي اللعبة المعروفة الآن بـ «الغولف» أو لعبة «الهوكي». وكان السلطان في القاهرة يخرج كل سنة إلى الميدان ليلعب الكرة، ويكتب إلى نوّابه بدمشق وحلب وطرابلس وغيرها ليلعبوا مثله على جَرْي العادة من كل سنة.

ولدينا نصّين مرسومين بعث بهما السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون إلى نائبه بطرابلس الأمير «سيف الدين أَيْتَمش الجُمْدار الناصري» مؤرّخ في سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣م، وإلى نائبه بها الأمير «سيف الدين تومان تمر» مؤرّخ في سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٩م. يطلب منهما الخروج للعب الكرة تأسّياً به، فكان نواب السلطنة بطرابلس يخرجون مع الأمراء إلى الميدان، حيث حديقة المنشيّة الآن، ويمارسون اللعب، وجاء في نص المرسوم المؤرّخ بسنة ٧٥٤هـ (١٣٥٣م) ما يلي:

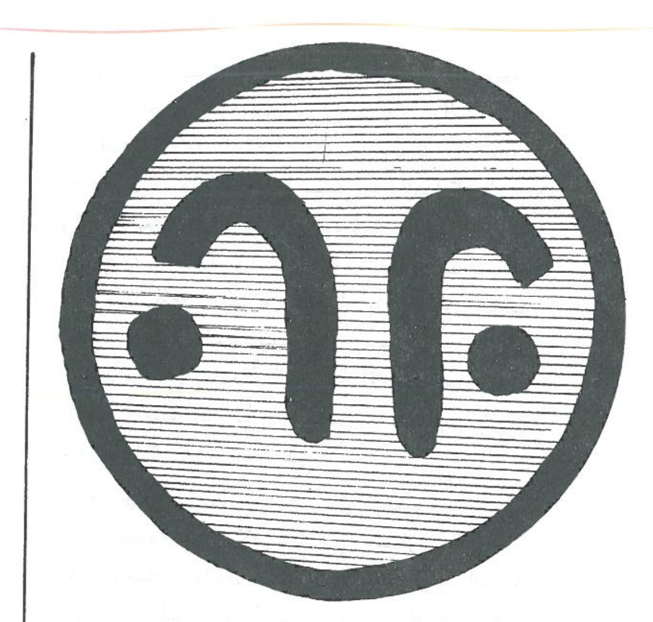
«.. ومرسومنا للجناب أن يتقدّم بالركوب بمن عنده من الأمراء في ميدان طرابلس المحروسة، ويلعب بالكرة على جاري العادة في ذلك، ليساهم أولياء دولتنا القاهرة في ذلك، ويسلك من طُرُقهم الجميلة أجمل المسالك»[٤٠].

وشعار الجوكَنْدار يوجد منه (٦) ستّة رنوك مختلفة الأحجام، ولكنها كلّها عائدة لنائب السلطنة الأمير «شهاب الدين قَرَطاي الأشرفي» صاحب المدرسة الملاصقة للجامع المنصوري الكبير من جهة الشرق، والمعروفة بالقرطاويّة. وكانت وظيفة الجوكندار إحدى وظائفه قبل أن يصبح نائباً للسلطان بطرابلس، ولهذا كان يقال في ترجمته:

«الأمير شهاب الدين قَرَطاي بن عبد الله الناصري الصالحي الأشرفي الجوكندار الحاجب».

وحين بنى مدرسته وداره والزقاق بينهما أمر بنقش شعاره على جدار المدرسة، وجدار الدار المقابلة لها، وقنطرة باب الزقاق لجهة سوق العطارين.

فرُسم على واجهة مدرسته ثلاثة رنوك، اثنان صغيران فوق كلّ من النافذة الأولى والنافذة الرابعة، وهما ضمن دائرتين صغيرتين تحيط بهما زخرفة وتشكيلات هندسية رائعة ضمن إطار مربّع.



□ شكل (١٥)

أما الثالث فهو عند حنية السقف فوق النافذة الأولى، رُسم ضمن دائرة كبيرة قُطرها نحو نصف المتر، ويتألّف الشعار من عصاتين معقوفتين إحداهما بعكس الأخرى يميناً ويساراً في وسط الدائرة، وبجانبهما كُرتان.

ويوجد على جدار الدار المقابلة لنوافذ المدرسة رنگ رابع كبير أيضاً بحجم الرنگ المقابل له، وبقربه شُرفة خشبية كبيرة تُعرف بالمنظرة تقوم فوق طريق الزقاق.

أما الرنگان الخامس والسادس فهما منقوشان على يمين ويسار قوس قنطرة الزقاق المطلّة على سوق العطّارين. ولكن من الملاحظ أنّ عصوي البولو في الرنگين الكبيرين تبدو أقصر من عصوين الرنوگ المنقوشة فوق النافذتين والقنطرة، فهي هنا طويلة بحيث تُلامسُ عصوي محيطَ الدائرة من أسفل، وتكاد رؤوس العِصِيّ المعقوفة أن تلامس محيط الدائرة من أعلى. (أنظر الشكل رقم ١٥).

والجدير بالذِكر أن الحنْية العليا القنطرة الزقاق تحمل رنگاً للساقي = الشرابدار، وهو الكأس كما تقدّم، وهذا شعار لوظيفة أخرى كان يتولاّها الأمير قَرَطاي، ولهذا جمع بين شعاري: الجوگندار والشرابدار في مكانٍ واحد.

ولا بُدّ من القول بأنّ وجود هذه الرنوگ على القنطرة وعلى الدار، فضلاً عن المدرسة، هو تأكيد على أنّ الزقاق بكلّ ما فيه من دُور وفُرن وحوانيت من ممتلكات الأمير قَرَطاي، ولا تزال الحوانيت المحيطة بالمدرسة، والدُور السكنية، والفُرنان القريبان من مدرسته تُعتبر من أملاكه الموقوفة حتى الآن، كما تؤكّد سجلاّت المحكمة الشرعية، وسجلاّت دائرة أوقاف طرابلس الإسلامية، وكلّها بُنيت في مدّة نيابته بين سنتي ٧١٦ - ٧٢٦هـ/١٣١٦ - ١٣٢٦م.

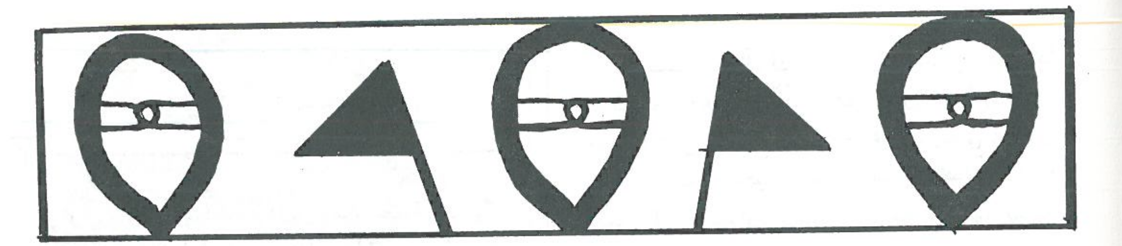
رنگ «العَلَمْدار» = «البَيْرَقْدار»

شعاره: العَلَم أو الراية، أو البيرق. و«العَلَمدار» مصطلح مركّب من: «العلم» بالعربية، و«دار» بالفارسية، بمعنى مُمسِك، فيكون: مُمسِك العلم، أو حامل الراية التي يتقدّم الجيش، ويمشي في موكب السلطان، ويرفع لواءه[٤١]. ويُرسم الشعار على هيئة علم واحد، أو عَلَمين يأخذان وضعاً يعاكس فيهْ أحدهما الآخر، أحدهما تتّجه رايته نحو اليمين، والآخر إلى اليسار، مع مَيْلٍ قليل لقضيب العلم مع الراية.

ولدينا مثال من هذا الرنگ فوق نافذة ضريح الأمير «عزّ الدين أيبك الموصلي»، وله أيضاً رنگ آخر، هو:

رنگ «البريدي» = «الشَّطْف»

شعاره: الدرع. وهو نسبة إلى البريد، وصاحبه هو الرسول أو ناقل البريد السلطاني والمكاتبات. ويقال للجميع: بريدية.



□ شكل (١٦)

وكان يجري اختيار «البريدي» من المماليك السلطانية[٤٢].

وشعاره يكون إمّا درعاً مستديراً، أو بيضاويّ الشكل. ويُسمّى أيضاً «رنگ الشطف» لأنه يتضمّن ـ في الغالب ـ خطوطاً أُفُقيّة تُعرَف بالشطْف أو الشطب. وقد تبلغ في بعض الرنوگ خمسة خطوط مشطوفة.

أمّا رنگ الأمير عزّ الدين أيبك، فهو يتألّف من ثلاثة دروع بيضاوية متشابهة، ومتساوية الأحجام، رُسمت مع شعاره «العلم» على لوحة رخامية مستطيلة مثبّتة فوق نافذة ضريحه الملاصق للحمّام المعروف باسمه حتى الآن[٤٣]، وذلك على هذا النحو:

درع بيضاويّ على يمين اللوحة في وسطه خطّ = شطف أفقي، وفي وسط الشطف دائرة صغيرة تشبه العقدة. ثم رُسم علم مائل تتّجه رايته نحو اليمين، ثم درع آخر كالأول، ثم علم مائل تتّجه رايته نحو اليسار، ثم درع ثالث في آخر اللوحة لجهة اليسار. والملاحظ أنها رُسمت كلّها دون إطار محدّد، ولعلّ ناقشها اعتبر اللوحة الرخامية المستطيلة إطاراً جامعاً لها، ولهذا يُعتبر هذا الرنگ مركّباً، حيث جمع بين شعار العلمدار، وشعار البريدي. (أنظر الشكل رقم ١٦).

ويجدر أن أنوّه بأن العَلَمَين كانا ملوَّنين بالأحمر قديماً، وقد زال لونهما الآن تماماً، كما لم يعد العَلَمان يظهران بوضوح إلاّ للمدقّق المتفحّص.

رنگ السلطان

أمّا الرنوگ السلطانية فيوجد منها بطرابلس اثنان، أحدهما رنگ كتابيّ، هو للسلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، وقد نُقش فوق باب مدرسته المعروفة بالناصرية[٤٤] في محلّة سويقة النوري بمواجهة الباب الرئيسي للجامع المنصوري الكبير، والتي بُنيت في سلطنته الثانية بين سنتي ٧٥٥ - ٧٦٢هـ/ ١٣٥٣ - ١٣٦٠م.

والكتابة من ثلاثة أسطر ضمن دائرة كبيرة قُسّمت إلى ثلاثة أقسام، الأوسط منها يبلغ ضعفي العُلْوي والسُفْلي معاً، يحدّدها خطّان أُفُقيّان مستقيمان ممّا يعرف بالشطْف أو الشطب، وكُتب فوق الشطف العُلوي اسم: «محمد». وتحت الشطف السُفلي كُتب: «حسن بن». وفي الوسط بين الشطفين كُتب: «عزّ لمولانا السلطان الملك الناصر».

ويُقرأ النص بتمامه على النحو الصحيح:

«عِزٌّ لمولانا السلطان الملك الناصر حسن بن محمد»[٤٥].

والكتابة بخطّ الثُلُث الشائع في كتابات عصر المماليك. (أنظر الشكل رقم ١٧).

رنگ «السَّبُع»

وهو رنگ سلطانيّ آخر من جملة الرنوك التي يُعبّر عنها برسْم حيوان مفترس كالسّبع، والفهد، والبَبَر، أو طائر جارح كالنسر، وهي ترمز إلى الشجاعة والقوّة والسَّطْوة. وكان يوجد بطرابلس رنگ السَّبُع، منقوشاً على الوجه الشرقيّ لقنطرةٍ حجرية كانت تقوم خارج باب جُنَيْنة آل الذّوق المجاورة لجامع الطّحّام[٤٦]، في المحلّة المعروفة بـ «قبوة الحتّة». وقد انتزع أحدهم تلك القنطرة حول منتصف هذا القرن، وبيعت لأحد تجّار الآثار أو هُواة اقتنائها، وكانت لا تزال موجودة في مكانها حتى حوالي سنة ١٩٥٠، ورأيتها بنفسي وأنا صغير حين كنت ألعب في الجنينة المذكورة.

ولحُسْن الحظّ، لدينا صورة شمسية عن هذا الرنگ مع القنطرة[٤٧]، وهو يمثّل السّبُع، رُسم مرّتين على جانبي القنطرة، فالذي على اليمين جاء حجمه صغيراً بحيث يبدو شِبلاً، رأسه يتّجه إلى اليسار، وتظهر أقدامه وكأنها تسير إلى الأمام، وله ذيل يرتفع فوق ظهره كالخرطوم المتلوّي.

أما على يسار القنطرة فرُسم سبُعٌ ممتدّ الجسم، يتّجه رأسه نحو اليمين، وتظهر أقدامه الأربعة، وكأنه يزحف نحو الأمام، كما يرتفع ذيله المتلوّى فوق ظهره ومؤخّرته.

ومن المعروف أن أول من اتخذ السّبُع شعاراً له من سلاطين المماليك هو السلطان الظاهر بَيْبَرس البُنْدُقداري[٤٨] (٦٥٨ - ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠ - ١٢٧٧م)، وبما أنّ طرابلس بقيت بيد الصليبيّين إلى ما بعد وفاته باثني عشرة سنة، فلا يمكن أن يكون هذا الشعار له كما يزعم بعضهم.

وقد اتّخذ الملك الأشرف بَرْسباي (٨٧٣ - ٩٠١هـ/١٤٦٧ - ١٤٩٥م). رنگ السَّبُع شِعاراً له، حيث ظهر على أبنيته ونقوده[٤٩].

فهل يمكن نسبة رنگ السبع بطرابلس إليه؟

هذا ما لم أجد له جواباً قاطعاً حتى الآن.

وبعد... فهذا ما وصل إلينا من أنواع الرنوك المملوكية المعروفة بطرابلس، ويمكن القول بأنه كان بها ضعف الموجود الآن، إن لم يكن أكثر، خاصة أن عشرات المعالم المملوكية قد زالت أو تهدمت في مراحل مختلفة، كان آخرها عندما قام مجلس تنفيذ المشاريع الكبرى بهدم المباني القديمة التي كانت تقوم على ضفتي نهر أبي عليّ. بحجة تقويم مجراه وذلك حول سنة ١٩٦٠، فأزيل أكثر من خمس طواحين من عصر المماليك، والبيمارستان، وخان المنزل، وباكية غانم، وجسر السويقة العتيق، ومدرسة النَّشر بن عجبور، والمدرسة الزريقية، والمدرسة البطركية، ومدرسة سبط العطار، ومدرسة الدبان، ومسجد الدباغين، وحمّام النزهة، وحمّام العطار، يضاف إلى ذلك ما أزيل في زمن سابق كالمدرسة الرفاعية، وحمّام الدوادار، وحمّام القلعة، وبرج السلطان قايتباي، وبرج الأمير جُلبان المأيَّدي، وبرج الأمير طَرَباي، وبرج الأمير أيْتمش، وبرج القناطر، وقصور نواب السلطنة، وحمّام القاضي القرمي، ومدرسته، وزاويته، والمدرسة العنبرية، ومسجد وزاوية ودار وضريح غرس الدين خليل الظاهري، وزاوية صفيّ الدين الصوفي، وغيره، وغيره مما نعرف، وما لا نعرف، ولا شك أن بعضها كان يحمل رنوكاً.

هذا، فضلاً عن «رنگ الزهرة» وهو يمثّل زهرة اللوتس، أو الوردة، أو الزنبق، أو دوار الشمس، ويوجد منه العشرات على عمارة طرابلس المملوكية، وهو يحتاج إلى دراسة خاصة، قد أُفردها في بحثٍ لاحق إن شاء الله.



□ شكل (١٧)

الرقم	الرنگ	الشعار	اسم صاحبه	مكانه	تاريخه	نوعه	لونه	العدد
١ ـ	الدوادار	داوة	محمد بن مباركشاه العلائي	سبيل التينة	٨١٦هـ/١٤١٣م	بسيط		٤
٢ ـ	الدوادار	داوة	مجهول	طريق الشهداء	٨٢٠هـ/١٤١٦م	بسيط		٢
٣ ـ	الشرابدار	كأس	سيف الدين طينال الحاجب	مئذنة جامع طينال	٧٣٦هـ/١٣٣٥م	بسيط		٣
٤ ـ	الشرابدار	كأس	عزّالدين أيدمر الأشرفي	المدرسة الخاتونية	٧٧٥هـ/١٣٧٣م	بسيط		٨
(بقي ٦)								
٥ ـ	الشرابدار	كأس	شهاب الدين قرطاي	سوق العطارين	٧١٦ ـ ٧٢٦هـ/١٣١٦ ـ ١٣٢٦م	بسيط	أسود	١
٦ ـ	الشرابدار	كأس	سيف الدين برسباي الناصري	برج برسباي	٨٤٣ ـ ٨٥١هـ/١٤٣٩ ـ ١٤٤٧م	مركّب	أسود	٢
٧ ـ	الشرابدار	كأس	تغري برمش الظاهري	المدرسة الظاهرية	٧٩٩هـ/١٣٩٧م	مركّب	٤	
٨ ـ	الشرابدار	كأس	مجهول	مدرسة الشيخ الهندي	؟	بسيط	أبيض	٢
٩ ـ	الشرابدار	كأس	سيف الدين أيدغمش الماردانى	المدرسة الماردانية (الميناء)	٧٠٧هـ/١٣٠٧م	بسيط	أبيض	٢
١٠ ـ	السلحدار	سيف	سيف الدين اُلْطُنطاش السيفي	قصر الطنطاش	بُعيد ٧٩٠هـ/١٢٩١م	بسيط	أسود	٢
١١ ـ	السلحدار	سيف	سيف الدين أقطرق الحاجب	المدرسة السقرقية	٧٥٧هـ/١٣٥٦م	بسيط		٢
١٢ ـ	السلحدار	سيف	مجهول	مسجد البرطاسي	؟	بسيط	أبيض	٢
١٣ ـ	السلحدار	سيف	مجهول	قلعة طرابلس	؟	مركّب	أبيض	١
١٤ ـ	أميرأخور	حدوة	مجهول	قلعة طرابلس	؟	مركّب	أبيض	١
١٥ ـ	الجوكندار	عصاتان وكُرتان	شهاب الدين قَرَطاي	المدرسة القرطاوية	٧١٦ ـ ٧٢٦هـ/١٣١٦ ـ ١٣٢٦م	بسيط	أسود (٢)	٣
١٦ ـ	الجوكندار	عصاتان وكُرتان	شهاب الدين قَرَطاي	دار الأمير قرطاي	٧١٦ ـ ٧٢٦هـ/١٣١٦ ـ ١٣٢٦م	بسيط		١
١٧ ـ	الجوكندار	عصاتان وكُرتان	شهاب الدين قَرَطاي	سوق العطارين	٧١٦ ـ ٧٢٦هـ/١٣١٦ ـ ١٣٢٦م	بسيط	أسود	٢
١٨ ـ	العَلَمدار	علم	عزّالدين أيبك الموصلي	حمّام عزّالدين	٦٩٤ ـ ٧٩٨هـ/١٢٩٥ ـ ١٢٩٩م	مركّب	أحمر	٢
١٩ ـ	البريدي	درع	عزّالدين أيبك الموصلي	حمّام عزّالدين	٦٩٤ ـ ٧٩٨هـ/١٢٩٥ ـ ١٢٩٩م	مركّب		٣
٢٠ ـ	السلطان	كتابة	الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون	المدرسة الناصرية	٧٥٥ ـ ٧٦٢هـ/١٣٥٣ ـ ١٣٦٠م	بسيط		١
٢١ ـ	السلطان	السبُع	مجهول	قنطرة جنينة آل الذوق	؟	بسيط		٢

مصادر وحواشي البحث

(١) Tripoli The Old City, Monument Survey - Mosques and Madrasas - American university of Beirut 1974.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي - تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٦ - ج١ ق٣/٦٢٢، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، للدكتور على إبراهيم حسن، القاهرة ١٩٤٨ - ص١٩٦، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، لحسن الباشا - القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٧٠ - ج١/١٧٠د الرنوك على عصر سلاطين المماليك، للدكتور أحمد عبد الرزاق أحمد - المجلة التاريخية المصرية، العدد ٢١ لسنة ١٩٧٤ - ص٦٧

Y. Artin Contribution à L'étude du blason en Orient, Londones 1902, pp. 11, 12.

(٣) مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، لإبراهيم طرخان - القاهرة ١٩٦٠ - ص٣٢٨

(٤) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، للقلقشندي - القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧ - ج٤/٦٢

(٥) الرنوك الإسلامية، لمايسة محمود داود - مجلة الدارة، الرياض - العدد ٣ لسنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م - ص٢٩

(٦) Mayer, A. New Heraldic Emblem of the Mamlûks& Ars Islamica IV. (1937) p. 350.

الرنوك على عصر سلاطين المماليك - ص ٦٨ و٦٩

(٧) الرنوك المملوكية، لمحمد مصطفى - مجلة الرسالة، مصر، عدد شهر مارس (آذار) ١٩٤٠ - ص٢٦٩

(٨) الفنون الإسلامية والوظائف - ج٢/٥١٩ - ٥٢١

(٩) أنظر عن حمّام أبراهيم باشا العظم في مجلة «أجنحة الأرز» مجلة طران الشرق الأوسط، بيروت، العدد ٢٠ لسنة ١٩٩٤، دراسة بعنوان: من معالم طرابلس الأثرية حمّام أبراهيم باشا العظم الجديد - عمر عبد السلام تدمري - ص٢٢ وما بعدها.

(١٠) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - لابن تغري بردي - طبعة دار الكتب المصرية ٩٦٣ - ج١١/١٦٢

(١١) السلوك - تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - ج٣ ق٢/٨٥١

(١٢) السلوك ج٤ ق١/٤٣٨، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، للصيرفي - تحقيق د. حسن حبشي - طبعة دار الكتب المصرية - ج٢/٤١٠، أنباء الغمر بأبناء العمر، لابن حجر العسقلاني - تحقيق د. حسن حبشي - طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة ١٩٧٢ - ج٣/١٥٧، النجوم الزاهرة ١٤/١٥، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، لابن تغري بردي - تحقيق د. نبيل محمد عبد العزيز - طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦ - ج٣/٢٥٠

(١٣) أنظر عن جامع طينال في كتابي: تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك - طبعة دار البلاد بطرابلس ١٩٧٤ - ص١٦٢ - ١٨٩

(١٤) تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون، لشمس الدين الشجاعي - نشرته بربارة شيفر - القاهرة ١٩٧٨ - القسم الأول - ص٢٥٠

(١٥) أنظر عن المدرسة الخاتونية في كتابي: تاريخ وآثار - ص٢٩٥ وما بعدها.

(١٦) Notés sur les Défenses de la Marine de Tripoli - J. Sauvaget - Bulletin du Musée de Beyrouth - II - Paris 1938

(١٧) أنظر عن مقتل ريموند دي تولوز في قلعة طرابلس، في كتابنا: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور - طبعة مؤسسة الرسالة بيروت، ودار الإيمان بطرابلس (طبعة ثانية) ١٩٨٤ - ص٤١١، ٤١٢، وكتابنا: لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين (التاريخ السياسي) - طبعة دار الإيمان بطرابلس ١٩٩٤ - ص٢١٤

(١٨) بدائع الزهور في وقائع الدهور، لابن إياس - تحقيق محمد مصطفى - القاهرة ١٩٦١ - ج٢/٢٥٩

(١٩) أنظر سجلّ المحكمة الشرعية بطرابلس رقم ١ - ص٢١ - نشرة معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية - طرابلس ١٩٨٢ بإشراف: عمر تدمري، خالد زيادة، فردريك معتوق.

(٢٠) أنظر ترجمة الأمير برسباي في: التبر المسبوك في الذيل على السلوك، للسخاوي - بولاق ١٨٩٦ - ٢٩١، والنجوم الزاهرة ١٥/٥٦٢، والضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي ٣/٧، والدليل الشافي لابن تغري بردي ١/١٨٦ رقم ٦٥١، والمهنل الصافي، له ٣/٢٧٧، ٢٧٨ رقم ٦٥٢، وبدائع الزهور ٢/٥٩، وحوادث الدهور في مدى الأيام والشهور لابن تغري بردي ١/١٦١، والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ٢/١٨٤، ومنادمة الأطلال لبدران ٣٢٢

(٢١) أنظر: الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، للنابلسي - تحقيق عبد الحميد مراد، طبعة دار المعرفة، دمشق ١٩٨٩ - ص٢٢٤

(٢٢) أنظر: النجوم الزاهرة ١٥/٤٧١، الضوء اللامع ٣/٣٥، تاريخ الملك الأشرف قايتباي، المؤرخ مجهول يرجح أنه السيوطي - مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٨٥٥٤ح، حوادث سنة ٨٤٢هـ.

(٢٣) أنظر تمام النص في كتابي: تاريخ وآثار.. - ص٣٠٧، ٣٠٨

(٢٤) أنظر ترجمته الوافية في: المنهل الصافي ٤/٥٩ وما بعدها

(٢٥) أنظر عن مدرسة الشيخ الهندي في كتابي: آثار طرابلس الإسلامية - طبعة دار الإيمان بطرابلس ١٩٩٤ - ص٢٦٨ وما بعدها

(٢٦) أنظر عن المدرسة الماردانية في كتابي: تاريخ وآثار... - ص ٣٢٦ - ٣٢٩

(٢٧) الفنون الإسلامية ٢/٥٩٧

(٢٨) أنظر عن جامع أرغون شاه في كتابي: تاريخ وآثار... - ص ٢١٧ وما بعدها

(٢٩) أنظر عن المدرسة الشمسية في كتابي: تاريخ وآثار... - ص ٢٣٩ وما بعدها

(٣٠) أنظر تمام النص في كتابي: تاريخ وآثار... - ص ١٧١

(٣١) أنظر كتابي: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري، عصر دولة المماليك - طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٠ - ص١٩

(٣٢) أنظر عن المدرسة السقرقية في كتابي: تاريخ وآثار... - ص ٢٩٠ وما بعدها

(٣٣) أنظر كتابه:

Contribution à L'histoire de Tripoli et de se Région à L'époque des Croisades, Problèmes D'histoire D'architecture et de Céramique - Hssan Sarkis - Paris 1981

(٣٤) سجل المحكمة الشرعية بطرابلس رقم ٤٣/٢٥

(٣٥) صبح الأعشى ٥/٤٦١

(٣٦) المصدر السابق ٤/١٩

(٣٧) المختصر في أخبار البشر، لأبي الفداء ٣/١٤٩

(٣٨) صبح الأعشى ٥/٤٥٨

(٣٩) الفنون الإسلامية ١/٣٧٤، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، د. عبد المنعم ماجد - القاهرة ١٩٧٢ - ص١٤٣

(٤٠) صبح الأعشى ٨/٣٣٤، ٣٣٥

(٤١) المصدر نفسه ٥/٤٩٣، ضوء الصُبح المسفِر وجني الروح المثمر ٣٤٦

(٤٢) زبدة كشف المماليك - خليل الظاهري - باريس ١٨٩٤ - ص١١٦

(٤٣) أنظر عن حمّام عزّالدين في كتابي: تاريخ طرابلس (عصر دولة المماليك): ج٢/٣٠٠، ٣٠١، وفي:

Tripoli of Lebanon - Bruce Condé-Al-Bayan Press, Beirut 1961 - pp. 82-87

(٤٤) أنظر عن المدرسة الناصرية في كتابي: تاريخ وآثار... - ص ٢٧٣، ٢٧٤

(٤٥) هذا النص لم يذكره المستشرق سوبرنهايم في مجموعة النقوش العربية، أنظر:

Corpus inscriptionum Arabicarum - M. Sobernhein - T. XXV - Institut Francais de Caire 1909

(٤٦) أنظر عن جامع الطحام في كتابي: تاريخ وآثار... - ص ٢٣٦ وما بعدها

-Tripoli of Lebanon - pp. 66-69

-The Architecture of the Mamluk City of Tripoli - Hayat Salam - Liebich - Canada 1983 - pp. 88-93

(٤٧) أنظر صورة القنطرة ورنگ السبع في كتاب نينا جدجيان

Tripoli Through the Ages - Nina Jidejian - Dar El - Mashreq Publishers, Beirut 1986 - Fig. No 215

(٤٨) أنظر رنگ السبع شعار السلطان الظاهر بيبرس في رسالة دكتوراه لمحمد خالد سعيد الزعبي، نوقشت بإشرافي في كلية الإمام الأوزاعي، بيروت ١٩٩٣ بعنوان: التاريخ السياسي والحضاري الإسلامي في عكار - ص٤٢٣ - صورة ٢٥ والرنگ في بلدة عكار العتيقة، وكان في قلعتها التي بناها الظاهر بيبرس سنة ٦٧٠هـ/١٢٧٢م (تاريخ الملك الظاهر، لابن شدّاد - تحقيق د. أحمد حطيط - طبعة المعهد الألماني، بيروت ١٩٨٣ - ص٣٧، الروض الزاهر ٤٠٢، السلوك ١٤٠ ث٢/٦٠٢، النجوم الزاهرة ٧/١٥٨، تاريخ طرابلس (تاليفنا: ج١/٥٦٦، ٥٦٧)

(٤٩) الفخّار غير المطليّ، لأبي الفرج العش - مجلة الحوليات السورية، المجلّد ١٠ ص١٧٨، الرنوگ على عصر سلاطين المماليك - ص٨٥

